هذا الانسان

أحبّ نفسه حبّاً لو تقصّيت لعثرت عليه حتى وهو في نسكه ، وتمالى فامتطّ يدعي لها الكرامة على الكون ، ويصطنع العزة تنافس السماء . ولكنك لا تقف منه عند هذا الفصل فهو في فصل آخر يبذل على الشيء من نفسه بذلاً جمّاً ، فيه الكثير من السرف والهدر ، كأنما هي ليست بالكريمة ولا بالعزيزة عليه . وما يعوزك إلاّ القليل من البصر لتشهد الانسان في موقفه الثنائي هذا ، فأنت تراه يعصي حتى المعاني الخلقية وهو يلتمس لنفسه المال والجاه والسلطان جميعاً ، وتراه يجري مع الأهواق أشواطاً إلى ما يذهب منها بالعافية ، ويستنفد الطاقة ، وقد يأتي على الثروة من هذا اللهو المترف النهم أو الخشن الجائع ، وهذه الملذات وتلك يقبل عليها في الخفاء أو في الجلاء ، سامراً عابثاً أو داعراً ضالاً ، وقد يقبل هقيّاً بائساً ، أو يقبل قانطاً منتحراً يصارع الحياة ، فهو في حاليه هاتين مفتون بنفسه عديد الفترن بها ، عدوٌ لها كثير الجناية عليها ، ولست تجده — على الصباح إلاّ مخلوقاً يجاهد قلبه حيناً ، وحيناً يناقض بعضه ، ولا يغرّنك وجهه ولباسه وكله .

رأيته أمة تنمي على أمة شهوة اتخاذ الغازات والجراثيم اداة عدوان وقهر ، وتقول : «ما هذه الشهوة إلاّ الجناية على الانسانية » ثم لم تلبث هي ان أخذت بالقنبلة الذرية «تبيد بها المدينة الكبيرة من بعد المدينة الكبيرة ، وتبرّر فعلتها الجانية هذه بما هاءت لها الوقاحة .

ورأيته حكومة وعدت قوماً ديار الآخرين على سعة أرضها وعريض ملكها ، واصطنعت من الكذب على الانسانية ، ومن فتات القوم مبرراً للعدوان .

ورأيته ملكاً لا يعرف إلاّ أن يمد من سلطانه ، وإلاّ أن ينتقص من حرية شعبه ، ومن حقوقه ما وسعه أن يفعل ، وإلاّ أن يمن من بعد على الناس بأنه من أهل الهدى !

ورأيته جماعات وأحزاباً وطبقات وشعوباً وقبائل ، بل ومبادىء تمارس أرق المعاني المثالية ، ومن بين يدي هذه المعاني ومن خلفها وفي ثناياها تروح الأنانة وتجيء ، وقد تفضحك فتتيهه .

لك أن تجعل الانسان فيلسوفاً في ثقافته ، أو تاجراً أو صانعاً أو عاملاً أو اكاراً ، ومن أي وسط وطبقة ولون .

ولك أن تجعله سلافيًّا أو سكسونيًّا أو لاتينيًّا أو عربيًّا ، ومن العرق الاصفر أو من الزنج ، فهو في هؤلاء جميعاً خارق معقد أشد التعقيد ، ولعله أعظم المخلوقات تعقيداً فيما يبطن ويتلوّن ويتقلب بين الشيء وضده ، فما تراه عنده أو تراه منه ليس – في الغالب – هو ما انطوى عليه أو تحرك إليه .

فهل طبيعة الانسان المتناقضة الثنائية هذه — في حبه لنفسه وجوره عليها ، وفي تقلبه بين الخير والشر ، وتذبذبه بين الفضيلة والرذيلة — تمثل معنى طفولته العقلية على رغم مئات الألوف من السنين : هذه التي عاشها مذ كان على وجه الأرض ؟ أو هي الشاهد على أن ليس له يد — على الأغلب — فيما يقبل ويدبر ، وفيما ينهج ويصنع ، وإنه إنما يسمى مختاراً أو مؤثراً بما يحتمل فيه من رأسه إلى صدره إلى معدته وغدده وأعصابه ، ومستجيباً ان قليلاً وإن كثيراً لضغط ما يلابسه من العوامل والقوى الخارجية على امتداد البيئة والجو والهواء ؟ .

ليس الانسان بدعاً بين المخلوقات في طبيعته الثنائية ، فتلك سنة الخليقة في الوجود ، تقوم على الدفع والجذب ، على الضدين يتفاعلان فيمضيان إلى التشاد والتماسك في كل كائن ، وكل خلية من كائن . ولولا قيام الكون على سنة تعارك الاضداد هذه لفسد النظام وانفرط العقد الجامع بين الكائنات .

وأنت تجد هذه السنة قائمة حتى في دنياك لو فطنت إليها ، فهي محتشدة بالاضداد كالتحليل والتركيب والعرض والطلب والخير والشر والحب والبغض والمساواة والتفاضل والوحدة والتنوع والديمقراطية والارستقراطية وما إلى هذه وتلك من ثنائيات الحياة .

وقد تنظر من نافذة ثانية فتجد أمامك الانسان بما استنبط من القواعد واكتشف من النواميس ، ورتاد من المجاهل ، وصعد في السماء قد بلغ ذروة تنفي الطفولة عن العقل البشري ، ولكننا نعنت هذا العقل كثيراً ونحن نتوقع له السلطان الكامل على أهواء الانسان ، وربما كان من الخير أن نفرق بين مجاله ومجالات الغرائز الاخرى .

وأحب وأنا أنتقل إلى النقطة الثانية من الموضوع — أن أنطلق من أغلال الرأي القائل بقدرة الانسان على أن يصنع أو ينذر نفسه للخير الخالص وأن أتحرر من أوهام هذه المعاني التي حفلت بها كتب الأخلاق ومعاجم اللغة ، فأنت واجد فيها أسماء لفضائل خلقية ليس لها — ان صدق الرأي — في الدنيا من وجود ، أو ليس لتحقيقها مكان في الطبيعة البشرية

وان كانت مثالية معنوية كالعدالة والعفة والمساواة ، وكالقناعة وأشباهها من المعاني المثالية وأنت إن أخذت منها احداها : القناعة مثلاً ، وتقصيت كنه الواقع ، رأيت الانسان لا ينفك يطلب المزيد من دنياه وإن ليس في وسعه — بحكم تركيبه الفطري — أن لا يفعل ، وإذ يظهر القناعة أو تظهر هي عليه ، فإنما ذلك يكون إما لعجز في القدرة ، أو التقصير في التطاول ، وأكبر الظن في الانسان الذي يرى قانعاً أن يكون مأخوذاً بسلطان هوى اشد امتلاكاً له ، وأكثر تحكماً في مراده من غريزة الطمع . وقد يتبذل الإنسان بالقناعة ، وهو يتخذ منها قناعاً .

وبعد فما الذي يصنع الإنسان ، أو ما الذي له يد فيما يصنع الانسان؟ وأنا إنما أتساءل عن المكونات الأصلية لخلقه ومشاعره فيما ينطلق ويتجه ويتكيف ، وأحسب أن أعني دواعي الحركة كالهم والألم والجوع وطلب اللذة وارضاء الكبرياء فما هذه إلا الآثار لا الأسباب هي التي نريدها بالبحث ، وتلك مقومات الهيكل البشري ، أو عماد تكوينه وأدوات اضطرابه وتقلبه في الحياة .

وانت تعلم أن الإنسان في بنيته مؤلف من عناصر المادة ، فهي ملاكه على اليقين العلمي وتعلم أنه يتساوى في هذا الخلق ويشترك هو والحيوان والنبات والجماد جميعاً ، وليس يمتاز إلا من حيث ارتقاء التركيب والتأليف ، وإبداع الخالق تعالى في خلقه . فنحن إذن من الإنسان أمام مزيج من عناصر المادة المتفاعلة ، كما نحن من سائر الكائنات على السواء . ودع أمر الإنسان فيما يمت إلى الروح أو إلى أثرها فيما يسمى ، فالعلم ما زال منها أمام باب مغلق وسر مبهم ، ولست أريدنيا أبحث أن أستسلم إلى الأحاسيس الغامضة فأرجم بالظنون .

هذه مضارعة ، أو هي على الأصح مقارنة نريد منها أن نخلص إلى القول بأن الإنسان إنما يصنعه حظه من الخلق فهو كائن على قدر الابداع في تركيبه من عناصر المادة ، وأعمال هذه العناصر في بدنه ، وقدرتها على الإمتصاص من الخارج ، وأن طبيعة الخلق هذه في الإنسان لا تيسره للخير الخالص ، ولا للشر الخالص ، فهو يتذبذب بين هذين وإنما الغلبة على قدر غلبة الجوانب الخيرة فيه على جوانب الشر ، وأن ما يعمل في سائر الكائنات يعمل في الكائن البشري لا محالة .

ولعل الخير في أن تأخذ من الجمادات مثالاً ، فأنت في تحريكك لحجر من مكان إلى آخر ، إنما تعتمد بالإضافة إلى قدرتك الشخصية ، على أشياء بعضها يتصل بالحجر ذاته ، وبعضها بالخارج ، مثل حجمه وشكله الهندسي وثقله ، أو تماسك ذرات بنائه وتراصها ، ومثل مكانه من مركز الجاذبية ، ومدى تعرضه إلى الانحدار أو الارتفاع أو الانبساط ، ثم اهوائه ...

المترقرق ، أو تتدفق العاصف ، كل أولئك عوامل ذاتية وخارجية تشترك معك في تحريك الجماد

كذلك الشجرة وهي إنما تمتد في الفضاء فروعاً . وتخترق الأرض جذوراً على قدر ما في فسحتها من سعة للامتداد والاختراق . وعلى قدر ما تمتصه في جوها من الضوء والحرارة ، وفي تربتها من الرطوبة والمواد الصالحة لها ، وهي تختلع متأثرة بالهواء يختلف ترقرقاً وعتواً ، وتتحول إلى الشمال أو الجنوب ، الى الشرق أو الغرب . ولعلك واجد في اختلاف الشجر والنبات علواً وضخامة ، ثمراً ولوناً ، واختلاف استجابتها للعوامل الخارجية تعليلاً يمدك بالفطنة إلى أن أسباب الحركة والنمو والتطور لا تنحصر في الكائن ذاته ، بل لا بدَّ من يد تمتد إليه من الخارج . فهل هذا شيء يمت الى وحدة الوجود ؟

والإنسان لا يبعد عن هذه السنة فهو عبدٌ لنفسه لفطرته ، لهذه الاجهزة في إهابه ، وعبد كذلك لعوامل البيئة والجو ، وبتعبير آخر : إنَّ الانسان ينفعل بهذا التعامل المتقد بين الخلايا في جثمانه كما ينفعل بطبيعة الجو فيما يلابسه من الأشعة والحرارة والبرودة ، وكما ينفعل بطبيعة البيئة فيما يرى ويسمع ويقرأ ويمارس ، حتى وفيما ينال من حبٍّ وعطف وحنان ، أو يجد من خشونة وقسوة وظلم . ودع نوع الغذاء ولون الحياة ، فأمر هذين في خلق العافية وتكوين الشخصية بيّن معروف .

هاك التنفس مثلاً ، فأنت به تحيا على شيء يبلغك من الخارج ، فيقبل جهازك منه ما يقبل ويلفظ ما يلفظ ، يقبل ما خلق واتسع لقبوله ، ويلفظ ما عداه ويمجه . وإذن فان انفعال الإنسان بما في الجو والمحيط إنما هو على قدر ما تسمح به طبيعته الذاتية ، ولعلَّ هذا يعلل اختلاف الناس في مدى الانفعال بالمؤثرات الخارجية ، ومدى قربهم من الخير أو الشر ، وقد يعلل كذلك تفاوت الفطرة البشرية ، فهي على أنماط منها ما يغلب الشر عليه فيمعج مما حذو طائفة من النبات والحيوان ، ومنها ما يقطر ههنا حذو أخرى من هذا وذاك .

وإذا كان هذا مكان الإنسان من نفسه ومن الطبيعة كان منفعلاً على الغالب وليس بفاعل فيما يأتي ، أو في معظم ما يأتي على الأقل ، وهو من أجل هذا المكان جديرٌ بالمعالجة الرحيمة أكثر مما هو جدير بالتثريب والزجر والقصاص ، بل هو بهذا الحظ نمسٌ حتى يأتي دنياه على ألم ، ويفارقها على آلام ، ويعيش بين البداية والنهاية يجاهد من نفسه مراداً يطلب في الحياة كل شيء ، ولا يرضيه شيء .

أنظر إليه فيما يعاني من طبيعته ، فقد يغضب ولا يملك أن يخمد ثائرته ، ويأرق ولا يملك أن ينام ، ويريد أن يعف ولا يملك أن يفعل ، ويحسد ولا يملك لقلبه نصحاً ، ويطمع

ولا يملك لغضبه ردعاً . وقد يدمن الخمر أو يدمن الميسر ولا يملك أن يكف على ما يعلم من ضرر ما هو مدمن عليه ، وقد يكربه أمر فيأخذ يفكر فيه ثم يمل ، أو يغشاه الاجهاد ، فيريد أن ينصرف ولا يملك لتفكيره وقفاً ، ويظل عقله يعمل ، وأعصابه تختلج على رغمه ، وهو يعلم أن شر ما في الدنيا هو القتل ويقتل حتى نفسه . وشر ما في العيش هذه المحرّمات ويأتيها ، وإذ اتخذ من الظلمات أستاراً ، أو من التلافيق أعذاراً لما يأثم . وهذا من عجاب أمر الانسان ، تركبه نفسه فيقترف الإثم ، فتنقلب عليه ، وتتنكر له ، فيروح يلتمس لها الرضا بالمنطق يصطنعه اصطناعاً . أو بالمبررات الواهيــة يختلقها اختلاقاً ، فهل هذه الذبذبة وهذا العجز يفسران مكان الانسان من طبيعته البشرية ؟

« غضب هشام على رجل من الأشراف فشتمه ، فوبخه الرجل فقال : « أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في أرضه ؟ » فأطرق هشام واستحيا وقال : « اقتص » فقال : « إذن سفيه مثلك » فقال : « خذ من ذلك عوضاً المال » قال : « ما كنت لأفعل » قال : « فهبها لله » قال : « هي لله ، ثم لك » فنكس هشام رأسه وقال : « والله لا أعود لمثلها أبداً » .

ثارت نفس هشام على الرجل من فعل أتاه أو من مظهر تبدَّى به ، فدفعته الى شتم صاحبه ، ولما ذكر بما لا يجمل بالخليفة أن يفعل ، راحت نفسه تلح عليه بالتأنيب وتدفعه الى استرضاء الرجل . ويلوح لي أن الشارع كان بصيراً حقّاً حين نفذ الى معنى ثورة النفس فقال بعدم صحة الطلاق في حال الغضب .

* * *

لست في سبيل ان أصوّر الانسان مجرداً من الأداة ، عاطلا من الادراك ، فأجعله بواء مما ينحرف ويأثم وأن أسقط عنه التبعات جميعاً ، فما لهذا أقصد ، فهو يمتاز ولا ريب بقدرته الاختزان العقلي ، وعلى ربط ما بين المعاني والصور ، وعلى التوليد والاستنباط وله من غرائزه الخيرة بعض العون على المناضلة ، أمام نزعات الشر وعوامل الفساد ، وما أريد الاّ الجهر في القول بأن الاصلاح الحق إن أريد للناس لا يغني فتيلاً حين لا يبنى على تقدير ما للطبيعة البشرية من سلطان قاهر على الانسان ، وبتعبير آخر : حين لا يرتكز على مدى طاقة الانسان على النضال أمام غرائزه الفطرية ، ومدى ما في تحسين العوامل الخارجية من عون على الصلاح الانساني ، فماذا عسى أن يردع الجائع المحروم حين تطول يده ، وان حرمت عليه السرقة ، ووضعت لها العقوبات ولو شددت ، وكيف يمكن أن يتيسر الصلاح في عالمنا الأرضي هذا وأمة من الناس تبيد مايوف طن من البطاطا لمجرد الابقاء على الاسعار

الراهنة ، وأمم كثيرة في أماكن شتى من الأرض تنام على الطوى ، وتعيش على الشظف والعري وتعاني ضغينة التفاضل وآلام الحرمان مما توصي به الآخرين ؟

منذ كان الانسان وهو ينشد الصلاح لنفسه ولقد حصره في التكتل والتجمع ، فتكتل وتجمع ، وفي الدين فتدين ، وفي العلم فتقب وبحث وتفلسف ، وفي الأخلاق فصنف الكتب وأكثر من النصح والارشاد ، وفي القوانين والأنظمة فوضع منها الأفانين الكثيرة ، ولكنه لم يبلغ ما أراد ولم يصنع إلا هذه البراعة فيما يخادع الناس بعضهم .

ومنذ عهد قريب شاعت فكرة الضمان الاجتماعي فأخذت بها بعض الأمم القادرة ، ولكنها لا تعدو العلاج الموضعي ، وهي ليست مغنية شيئاً في حل مشكلة الانسان العالمية ، فارتفاع منزلة الفرد أو الجماعة في شعب دون آخر إلا السبب يزيد من شقة التفاضل بين الشعوب ويثير حس الكبرياء ، ويقوي العصبيات القومية وإن وجدت أمة لها القدرة على الأخذ بهذا العلاج ، فانك لا تجد تلك القدرة في أمم أخرى ، وفي وسعك ان تحكم بأن وسائله غير متيسرة عند أكثر الشعوب .

وها هو ذا الانسان اليوم في رحلة الأمم المتحدة ، ولكن صوت الأنانية القومية لا يزال مدوياً بالأحقاد والأسباب الباطلة ، فالنزاع على السبق في الارتقاء ، وعلى مد السلطان وعلى القنبلة الذرية ، ما انفك قائماً على أشده ، وسيظل قائماً إلى أن تقوم حرب عالمية ثالثة تأتي على الأخضر واليابس ، ولعلها تقسر الانسان على التماس دولة واحدة تنهض بالضمان البشري ، وتعالج الناس معالجة نفسانية صحية أكثر منها زجراً بالعقوبات ، أو تهويتاً بخيال المدينة الفاضلة ، وتكفل الحاجات البشرية بنظام واحد للاقتصاد والنقد ، كما هو واحد للصناعة والزراعة والصحة ونحوها وتساوي بين البشر في ظروف الأخذ بالوسائل الثقافية ، وتقضي على الجوع والعري والجهل ، وتني العصبيات القومية مكمن الأدواء جميعاً إلى حيث يعلم الناس في أقطار الأرض إنهم بشر وليسوا شعوباً وقبائل تمايز وتتفاضل بالعرق والأرومة ، وحيث لا تباد المواد الغذائية في مكان وفي الآخر من الدنيا شعب محروم ، ثم إلى حيث تنسجم الاعمال البشرية في وحدة تتحرك وتتجه لخير أهل الأرض .

* * *

فهل تبلغ الانسانية هذه الذروة فيفلح الانسان ؟ إني لكثير الشك ، وإن كنت أرجو لهذا الحلم أن يتحقق .

عمان — شرق الاردن شكري شعشاعه